فلتنتصر لغتي على الدهر العدو
فاعلية اللغة العربية في رؤيا درويش الشعرية

▪ أ. د. بشرى البستاني

لاشك أن مرامي الشعر الكبرى هي انهماكه بمكابدات الإنسان والبحث عن معنى وجودهِ ومغزى شجونه النابعة من أعماق وجدانه المفعم بالحنين والعارم بألم المصير، ولذالك نرى الشعر يتوهج كلما نبع من أعماق الذات الإنسانية، ونراه شاحبا باهتا كلما ابتعد عن أغوار النفس وصار يحاور الأشياء خارجها، ولكي يتمكن الإنسان من التماسك ومقاومة عوامل الانفصال التي تكرس اغترابه لابد له من الشعور بالانتماء، ولابد له من هوية يستطيع بها المقاومة، وتعني الهوية الوعي بالذات، ويمكن اعتبارها معادلا للانا، ويرى اريكسون إن الكثير من جوانب تطور الأنا يرجع إلى نمو معنى الهوية[١] وتعد الهوية الثقافية من المستويات المهمة للهوية العامة للإنسان والأمم معا، ولقد كانت اللغة وما تزال تشكل الإبداع والثقافة بل هي جوهر وجودهما معا فباللغة حدثت المعرفة وحدث الفن كذالك، لكن الفن يعيد للغة جميل صنعها حينما ينتهك كونها الموشك على السكون فيشعل فيها حيوية التجدد ويلف علاقاتها بغلالات الغموض، والغموض إيحاء، والإيحاء جمال، والجمال لايتوهج الابانوار الروح وعنفوان القلب وأشواق الفؤاد، الجمال لايتوهج ألا بوجد الإنسان و صباباته، من هنا نجد الشعراء الكبار ومنهم محمود درويش يضفون الحياة على كيانات الطبيعة، على الأرض والشجر والنهر والبحر والحجر، على الليل والفجر والأصيل، وعلى كل الأشياء والفضاءات المحيطة بالشاعر، يضفون عليها باللغة من أشواقهم ومواجيدهم حتى تتحول إلى سؤال مفعم بحس الحياة، عارم بالنبض منهمك بقلق الوجود، وفي عملية التحويل هذه، تحويل الأشياء من حيز جمودها إلى حركية الحياة التي يمنحها الفن إياها يكمن سر الإبداع، وسر الإبداع في الشعر يكمن كذلك في القدرة على تحويل الأشياء من وضوحها إلى سر الإسرار حينما يلبسها غموض الفن من خلال وضعها

١.

في تراكيب لغوية تربطها ببعضها علاقات جديدة لأتمت إلى وجودها المعجمي ولا التقليدي بصلة.

إن اللغة ضرورة، إنها حاجة روحية إيمانية وجدانية، سموها يكمن في سمو الروح الإنسانية، ورفعة سرها تكمن في جوهر رفعة الإنسان وكرامة الأمة، بسموها يحقق الإنسان سمو ذاته ولذلك كان الدفاع عن اللغة الأم لأية امة هو دفاع عن روح الأمة ووجدانها وتاريخها، وهو دفاع عن شخصيتها المتأصلة وعن ذهنها وذاكرتها التي بها صارت الأمة امة واحدة.

لقد اهتم محمود درويش بالإفصاح عن موقفه من اللغة العربية اهتماما استثنائيا فهي في شعره الينابيع الأولى، أنها الأصل والمعجزة و المرتكز أنها وحدها القادرة على بناء العالم أو هدمه لأنها وحدها القادرة على تشكيل عوالم الشاعر والإفصاح عن رؤاه، واللغة في الكتابة تصبح اكبر من التاريخ واشمل من الذاكرة لأنها هي القادرة على احتواء الزمن وتثبيت جريانه المستمر حينما تحوله إلى نص منجز، فاللغة اكبر من التاريخ لأنه بها وبفعلها يصير التاريخ تاريخا. هي المتمكنة من بناء كل شئ من جديد زماناً ومكاناً وحدثاً وشخصيات، اللغة تبني كل شئ إن شاءت وتهدم كل شئ بإرادة خلاقة.

أن درويش يؤمن بان اللغة هي وجود الوجود، فالمعاني لاتتبين بالكلام لأنها تتبين كلاما عندما تتضح، لذا كان مبناها ومعناها جوهرا واحدا، المبنى هو المعنى ذاته متكلمًّاً، هو المعنى في شكله المحسوس فنكون اقرب إلى حقيقة الواقع عندما نجعل للألفاظ كيانا معنويا يحكيه وجداننا حكاية صادقة، فباللغة وفي اللغة تستقر معانينا، باللغة نقف إمام ذواتنا[٢] نفهمُها أولا ونفهّمها للآخرين ثانيا، باللغة نقف إمام وجودنا وتراثنا وحضارتنا وكوارثنا نعيها وندعو الآخرين إلى وعيها، والتواصل هو انجاز حركية تبدأ في الداخل لاعجة أو فكرة وتنتهي على اللسان أو الورقة كلمة منطوقة او مكتوبة.

اللغة بمرامها ومضامينها غاية في الأدب الرفيع ولذلك يسمو درويش باللغة العربية إلى ذرى السحر مرة والى مراقي المعجزات أخرى.

٢.

هذه لغتي ومعجزتي

عصا سحري، حدائق بابلي، ومسلتي

وهويتي الأولى

ومعدني الصقيل

يسمو باللغة العربية درويش ليجعلها فيضاً متوهجاً من نظرته الشمولية إلى الكون والوجود.

لقد كانت اللغات وما تزال مدار اهتمام الثورة الألسنية التي راحت تدرس أنظمتها وقواعدها وفروعها ومعارفها ومستوياتها دراسة تزامنية مرة وتعاقبية أخرى وقامت بدراستها دراسة مقارنة ثالثة، كما اهتمت مدارس علم النفس بالنمو اللغوي للإنسان بوصفه احد المظاهر الأساسية التي يعتمد عليها إلى حد كبير في قياس نموه العقلي والاجتماعي والانفعالي، فاللغة التي يستعملها الإنسان هي دليل نضجه العقلي والانفعالي كما ركزت هذه المدارس على اللغة كونها جوهر العمليات العقلية والمعرفية عند الإنسان، فنمو الفعالية اللغوية لديه يزيد من فهمنا لمحتوى الحياة العقلية الذي يتصف به[٣]، إن اللغة بإجماع الباحثين هي رموز عرفية تنتظم في أصوات يعرب عنها الإنسان في كلمات أو جمل تفصح عن معنى، ويؤدي بنا تفحص حقيقتها إلى إن ماهيتها تؤكد كونها ظاهرة اجتماعية تاريخية متطورة خاضعة للمؤثرات سلبا أو ايجابيا مما يدحض افتراض كون اللغات ولاسيما اللغة العربية كيانا مقدسا مطلقا منعزلا[٤] هذه العزلة التي تبعد عنها سمة الانفتاح الذي يقف وراء ثرائها العظيم ويوفر لها سمة التأصيل والتأثر والتأثير، ذلك أن اللغة العربية التي هي اللغة الأم لأمة تقترب من الثلاثمئة مليون عربي من جهة والمتعبد بها كونها لغة القران العظيم من قبل مليار ونصف مسلم في العالم إنما هي لغة تمتلك من سمات الخلود ما ضمن لها الحفاظ على كينونتها أكثر من ستة عشر قرنا فهي لغة تتسم بالغنى والأصالة والثراء لعمق تجربتها الإبداعية والدينية والحضارية وضربها عميقا في أغوار الزمن، واللغة ترتبط

٣.

٤.

بمجمل حركة المجتمع من خلال وعي الإرادة البشرية ومطالب صيرورتها عبر إشكاليات الوقائع من حولها، وإذا كانت الهوية هي مجموعة السمات الثابتة أو الثابتة نسبيا في الكينونة التاريخية لأي امة فأن الأدب يعد احد أهم وسائل الجماعة في تحديد سمات هويتهم الاجتماعية والثقافية الخاصة باعتباره خاصة لغوية تقوم باللغة وفي اللغة لتنفصل عنها وترتفع بأساليبها في التعبير وظيفيا وتعبيريا ولتدخل معها في عملية إزاحة متواترة لمادتها، تراكيب ومفردات، محققة بذلك كينونتها الخاصة وجوهرية هذه الكينونة المستقلة في بنية الجماعة ومن حيث هو (الأدب)احد اخطر وأثرى وارسخ النظم الدلالية التي يعتمدها النظام الاجتماعي في انجاز مهامه في التعبير والتطور والتغير[٥] فالأدب بلغته يعمل على التأثير بالذوق العام ويكاد الناس يجتمعون على مضامينه وجمالياته فهو يقرب بين جموع الأمة ويرقى بذوقها وينشد لمصيرها المشترك ويفصح عن حزنها وحلمها وفرحها معا وإذا كان الشاعر محمود درويش قد حسم قضية أزمة الهوية لديه منذ ديوانه الأول (أوراق الزيتون) في قصيدة (بطاقة هوية) إلا أن ذلك السؤال الوجودي الملح ظل يراوده طويلا..... من أنا ؟ لان الجواب في سجل / أنا عربي كان معبرا عن مجابهة الذات لتحدي الأخر و محاولات إلغائه وتدمير مكونات شخصيته، لكن درويش اليوم وبعد أربعين عاما يسعى لإخراج الإجابة من دائرة ردة الفعل إلى دائرة الفعل كي يكسبها إبعاداً حضارية بعد أن كانت أبعاد الجواب خطابية، انه باللغة يعود إلى الجذور كي يبلور معالم الأنا التي يتساءل عن ماهيتها وتأمل قصيدة(قافية من اجل المعلقات) في ديوان (لماذا تركت الحصان وحيداً) يؤكد ذلك إذ وردت مفردة الضمير (أنا) إحدى عشرة مرة[٦] بينما وردت اللغة و مادار في حقلها الدلالي من كلام وحديث ونثر ومعلقة وسؤال وجواب تسعا وعشرين مرة[٧]:

ما دلني احد علي، أنا الدليل أنا الدليل.

إليَّ بين البحر والصحراء

٥.

٦.

٧.

من لغتي ولدت.... فليهبط الزمن الثقيل.

عن خيمة العربي أكثر، من أنا؟

هذا سؤال الآخرين ولا جواب له.....

أنا لغتي.... أنا.....

وأنا معلقة، معلقتان، عشر، هذه لغتي

أنا لغتي، أنا ما قالت الكلمات:

كن جسدي فكنت لنيرها جسدا

هكذا يعيد درويش اللغة إلى الينابيع، ليعيد للكلمة طاقتها الخلاقة التي ركزتها فيها السماء، وجاءت بها الكتب السماوية جليلة عانية أول ما خاطبت الإنسان:(اقرأ..... العلق من الاية١) وفي البدء كانت الكلمة، إذ خلق الله سبحانه الكون بكلمة، وخلق الإنسان بكلمة، (إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له....كن فيكون النحل:٤٠) والكلام هو النشاط الفردي للغة، النشاط القادر على الفعل والمقاومة والانتصار، ومن يقدر أن يطوع الزمن ويحتويه غير اللغة ؟

ومن يستطيع أن يكسر بؤس الزمن وينتصر عليه غير اللغة التي تحوله من زمن دائري مقفل إلى زمن جميل منفتح على الأتي، إن إضافة ياء المتكلم إلى (معلقتي، لغتي...)تخصيص للغة العربية وتخصيص لزمن المتكلم المجزأ المشتت الذي يبتغي الشاعر الانتصار عليه وعلى عوامل ضعفه استجابة لنداء لغته الجديدة، هذه اللغة التي تختزن الإبداع والأنساق المعرفية الثرة وروح الحضارة والحداثة.. وهذه اللغة تحتاج إلى جسدٍ يشكل روحها ليحولها إلى وجود ولذلك يكون فعل الأمر: كن جسدي، وتكون الاستجابة فورية، فكنت لنيرها جسداً. وتتبادل النداءات و الأوامر مواقعها بين اللغة والشاعر وتدخل الصحراء لتكون فضاء الحب والفعل في المنطقة التاريخية التي تحدد المواقع والوقائع:-

فلأرفع معلقتي لينكسر الزمان الدائري

ويولد الوقت الجميل

للمرء مملكة الغبار وتاجه فلتنتصر لغتي

على الدهر العدو، على سلالاتي، عليّ

على أبي وعلى زوال لا يزول

هذه لغتي ومعجزتي، عصا سحري

حدائق بابلي ومسلتي وهويتي الأولى

ومعدني الصقيل

ومقدس العربي في الصحراء

يعبد ما يسيل من القوافي كالنجوم على عباءته

ويعبد ما يقول

إن الدهر العدو هو زمن المحنة، زمن تألب العدوان وانغلاق دائرته حول عنق الأمة العربية، زمن الانتكاسات والاحتلالات والنكوص، ودعوة درويش لغته إلى الانتصار على هذا الزمن هي دعوى للحياة وانتصار الوجود.

إن قراءة عنوان هذه القصيدة توحي بأن القافية تعني في واحد من دلالاتها القصيدة على رأي بعضهم فيكون معنى العنوان قصيدة من اجل المعلقات، أي في تمجيدها، والمعلقات نفائس الشعر العربي الجاهلي واعلاقه والفرائد فيه، المعلقات أمهات الشعر العربي، والمعلقات في الحقيقة هي لغتها والرؤى التي كتبت بها هذه اللغة، وهي اللغة التي كتبت بها هذه القصائد الأم بكل ما في هذه اللغة من تجليات ومعرفيات شتى..

هكذا يخاطب الشاعر لغته، بهذه التواصلية الفذة التي تتحول من الإخبار إلى الكشف، من التسمية إلى الجوهر حيث يقود علم الأسماء إلى علم الأشياء فمتى عرفنا حقيقة الاسم عرفنا حقيقة المسمى[٨]. وحقيقة المعرفة تتم هنا بالوصل مرة وبالفصل أخرى، بالعطف مرة، وبالقطع مرة، إذ تنكشف لغة الشاعر رعن:

٨.

← معجزتي ← عصا سحري ← حدائق بابلي مسلتي

← هويتي الأولى

ومعدني الصقيل ومقدس العربي في الصحراء (الشعر) سبعة أخبار أو سبع صفات لهذه اللغة، حيث يكتمل الوجود اللغوي- الإنساني..

نعم.. اللغة العربية مقدس العربي في الصحراء، والعربي كان يقدس الشعر فيما يقدس، لأن الوثنية هي علاقة مباشرة بالمحسوس، والشعر حاضر في حياة العرب حضور ضرورة وحضور وجود، فهو أسمى الرؤى الوثنية التي مورست في تلك المرحلة، واللغة الشعرية التي شكلت ذلك الشعر هي التي مجدّت وخلّدت أمكنة العربي وفلسفت تلك الأمكنة في اللحظة الطللية وهي التي خلدت منظومة قيمة في لحظة المدح والفخر والرثاء، ولذلك ظلت هذه اللغة مقدسة، وظلت القوافي منهلة، وظل الشعراء مبهورين بما يرسلون من تلك القوافي، يقول أبو نواس[٩]:

ذي لغة تسجد اللغات لها

ألغزها عاشقُ وعمّاها

هي لغة خاصة أذن، سامية، معبودة، تسجد لها اللغات الاعتيادية، ومنتجها ليس هو الشاعر الاعتيادي، ليس هو الناظم، إنما هو الشاعر العاشق المفعم بأشواق الشعر وعذابه، والمشتعل بمكابدته المأخوذ بومضه وأنواره، تلك هي اللغة الشعرية التي تتقن اللعبة فلا تطلق اللغة مباشرة أو تقريرية، بل تلغزها وتلفها بغموض الفن وغلالات الإيحاء المولع البارق، بهذه اللغة يتمكن الشاعر من قهر اغترابه الثقافي والإنساني لأنها سلاحه في قهر شرط الضرورة، شرط الانغلاق والانكفاء والقهر، ولذلك تصير لغة الشاعر هي سر وجوده، هي الرحم الذي أنجبه مانحا إياه الحياة:

٩.

بين البحر والصحراء من لغتي ولدت.

وباللغة والمكان يحدد الشعر أهم مقومات الهوية لكن السؤال يتواصل تواصل زمن المحنة.... من أنا...؟ ويأتي الجواب مؤكدا سمو قامة الوليد ليصير موازيا لقامة الأم و متماهياً بها:

أنا لغتي... أنا

وأنا معلقة، معلقتان، عشر،هذه لغتي

أنا لغتي، أنا ما قالت الكلمات

إن درويش يؤكد شعراً ما يؤكده فلاسفة اللغة من أن اللغة هي الإنسان عقلاً وروحاً وفكراً وجسداً.. إن حضور ضمير الأنا منفصلا وبألفه الباذخة المفتوحة على الأفق الحضاري و الإنساني الشامل متحاورا مع ثقافات العالم ومنجزاته هو الذي يشكل جوهر القضية التي يحملها النص.. إن الجملة الاسمية المتشكلة من الضمير مبتدأ، ولغتي خبرا بما تحمل من الثبوت واليقينية هي كفتا المعادلة التي تحمل الجواب اليقين على سؤال الهوية من أنا....؟ وإذا كان الجواب من قبل سهلا يسيرا يلخص في العروبة ورقم الهوية والمهنة وعدد الأطفال، فان شبكة العلاقات اليوم راحت تتعقد لتدخل في حوار حضاري وأنساني معا حتى دخلت الصورة الشعرية للغة والكلام مرحلة الصورة المتجاوزة التي تقترب مستويات الترميز فيها من اللغة الأسطورية التي يقبع منطق أسطوري تحت بنائها إذ تتوازن الصورة الشعرية في معناها مع أساطير النشوء وخروج الكون من العماء إلى الوجود[١٠].

لا ارض فوق الأرض تحملني، فيحملني كلامي

طائرا متفرعا مني ويبني عش رحلته أمامي

في حطامي، في حطام العالم السحري من حولي

على ريح وقفت وطال بي ليلي الطويل

فإذ يصير الشاعر الإنسان بكل ما يمور في داخله من لواعج الشهوة والإقدام

١٠.

والفعل جسدا للكلمات فذلك يعني انه يمنحها فاعلية تلك اللواعج جميعاً وعليه فأن هذه الكلمات التي يشير إليها النص ليست كلمات اعتيادية، لكنها كلمات تمتلك القدرة على الأمر والسطوة وتحقيق الإرادة، كلمات يستجيب لها الشاعر منفذا أمرها متبادلا معها الأدوار فمرة تكون اللغة هي الأصل: من لغتي ولدت، ومرة يكون الشاعر هو الأصل:

طائرا متفرعا مني ويبني عش رحلته أمامي

إن الرمز الذي ينتمي إلى عالمي الشعور واللا شعور معا على حد تعبير يونج يعبر عن علاقات متداخلة وهذا التداخل أدى إلى أن يكون الشعر الرمزي غامضا أكثر الأحيان مما يعمل على تخصيب الرؤيا وتمكين الشاعر من مخاطبة القارئ بشفرة ذاتية خاصة لا تحدها حدود ولا تضبطها ضوابط تقليدية وذلك عن طريق الدلالات الرامزة التي تفتح قنوات عديدة لإثراء الانفعال الذي لا ينفصل عن الفكر فضلا عن أن الرمز يقوم بمهمة إعادة الأشياء إلى طبيعتها الأولى غير ملق بالا إلى التشابه المظهري بين الأشياء، وعن طريق التشابك والتداخل عبر الرؤية الفنية تبعث إشعاعات الرمز تموجات تقذف في أعماق النص إيماءاتها الرامزة[١١] فما لا يمكن في وسائل التعبير الأخرى يمكن أن يكون في الشعر الرمزي لذا فانه فن التمكن من اللاممكن:

لا ارض فوق الأرض تحملني، فيحملني كلامي

طائرا متفرعاً مني، ويبني عش رحلته أمامي

هل كان درويش هنا يعيد صياغة فخر المتنبي بشعره، لكن بصياغة عصرية؟

هل كان ينظر هنا إلى نص المتنبي[١٢]

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم

١١.

١٢.

أنام ملء جفوني عن شوا ردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

بهذا الفخر السامق المتعالي وبصياغة كلاسيكية حيث تنشر أبهة الشطرين التامين للبحر البسيط هيبتها مع القافية وروي الميم الأغن بقوة الضمة المشبعة في وصلهِ، فا لكلمات هنا وهناك بؤرة النص وجوهر انطلاقه، الكلمات التي شكلها الشاعر شعرا، ذلك ينام عما شرد منها إلى الأفاق مطمئنا، وهذا المعاصر يشهد رحلتها الطائرة بين الجماهير أمام عينيه.....

وإذا كان شعر المتنبي شوارد ينام عنها فان درويش ينظر إلى شعره على انه ملاذات حياة ففي الطيران المستمر خطورة تكمن في زوال الأثر ودرويش بوعيه التاريخي وحسه الحضاري يدرك هذه الخطورة ولذلك يودع لدى طائره القدرة على حفظ هذا الأثر إذ يحرص على بناء كيانات تلك الرحلة أمام عين الشاعر، هذا هو الفخر المعاصر.....

لا ارض فوق الأرض تحملني، فيحملني كلامي...

وتلك إشكالية السمو الداخلي والنشوة الروحية والحاجة إلى ارتياد فضاءات جديدة، فالشاعر يرفض أن يضل سجين الأرض، انه يحس بحاجة إلى الطيران، ولما كان كيانه الجسدي لا يتيح له ذلك، فأنه يجد خلاصه من جذب الأرض بالشعر الذي يدرك كيف يتحول إلى طائر بوعي مبدعه وبرؤيته الشعرية المقتدرة على الانتشار والتحليق والاستمرار بالتواصل من خلال ما توحيه مفردة(عش) من تناسل واستمرار..

لا ارض فوق الأرض تحملني فيحملني كلامي

فهذه الأرض الاعتيادية لم تعد قادرة على بث إشارات الشاعر كونها إشارات غير اعتيادية، ولما لم يكن هناك ارض فوق هذه الأرض لأداء المهمة فان الشاعر يلجأ إلى الكلام الذي هو أسلوب متميز في ممارسة اللغة وكلام الشاعر هو شعره هذا الذي يحمله، يحمل مواجده ومكابداته وكشوفا ته وحرائقه بحيث يصير

الكلام –الشعر فعل وجود، إن هذا النص ككثير من نصوص الشاعر يعلن عن افتتانه بالكلام وسلطانه، وقد تجلى هذا الافتتان بالانشغال بالنص المبدع شعرا أو أغنية أو نثرا، وهو يتجاوز النص إلى اللغة فيصبح افتنانا باللغة لحظة انتشالها لذاتها من شفا الهاوية التي توقفها على عتباتها كيفيات إجرائها في الاستعمال العادي، وهذا الافتتان ليس احتفاء باللغة العربية وفصاحتها وبيانها ولكنه يحمل في صميمه تسليما مسكوتاً عنه بان الإنسان حاضر بالتاريخ من جهة اللغة، بل إن إقامته في العالم مشروط تحققها باللغة، بها يتم وفيها يحدث، فاللغة تسمية للموجود في الأعيان وهي في الشعر نفاذ إلى ما يدق المسلك إليه كما يقول الجرجاني ولاسيما إذا كان ذلك المحجّب غائبا لا يرى، وهي أي اللغة تستله من غيابه لتقيمه في منطقة الحضور فهي الطاقة التي تمكن الحضور من بناء ذاته حين تمكنه من مغادرة مناطق الغياب[١٣].

ولما كان درويش يحارب الإلغاء والتغييب ومحاولات الإبادة فقد وجد باللغة مشروع حياة ووجود، وهذا المشروع هو المعادل الأهم القادر على إزاحة كل تلك المشاريع العدائية معا، ولذلك يعلن بفخر كذلك:

فلتنتصر لغتي على الدهر العدو، على سلالاتي

عليٌّ، على أبي، وعلى زوال لا يزول

إن انتصار اللغة العربية التي يعنيها درويش هو انتصار مشروع الحياة ضد الضعف والوهن والسكونية، ضد هوان السلالات التي ارتضت الأمر الواقع وحتى ضد استسلام الذات ويأس الآباء وعوامل الإفقار والغياب..

فاللغة الحية التي تمتلك شروط حيويتها وجدلها وبقائها ليست هي كائناً حياً لان الكائن الحي يموت لكنها نشاط الكائن الحي المتصل المستمر المتواصل الباقي، أنها حركيته وخصوبته واستمراره جيلا اثر جيل ودرويش يعي ذلك حينما يريد للغته أن تنتصر على مشروع الزوال العربي الحالي الذي طال أمده (لا يزول) أنها إذن ليست لغة تقليدية بل هي مشروع حضاري ثوري تقدمي يمتلك شروط الانتصار التي تستمد أصولها من الجذور التي تظل متوهجة في شعر درويش علامة

١٣.

على يقين لا ينكسر لأنه تاريخ راسخ المعالم والمرجعيات والمعرفيات والرؤى تسجله هذه اللغة الباذخة التي حفظت تاريخ الأمة الزاهرة بين شرق الأرض وغربها ولذلك يواصل الشاعر بالجملة الاسمية الواثقة.

هذه لغتي ومعجزتي، عصا سحري

حدائق بابلي ومسلتي وهويتي الأولى

ومعدني الصقيل

ومقدس العربي في الصحراء

يعبد ما يسيل من القوافي

كالنجوم على عباءته ويعبد ما يقول

لابد من نثر أذن..

لابد من نثر الهي لينتصر الرسول

ماذا بقي لكي يقال في تمجيد اللغة ولم يقله درويش هنا....؟

إن درويش إذ يصف لغته العربية بهذه الأوصاف السبعة فلأنه يدرك ما لهذه اللغة من فاعلية فهي تحمل في ذاتها كل ما يجعل منها لغة قادرة على استيعاب حركة الحاضر ونقل ما ينطوي عليه بالقوة من قوانين وضرورات وإشكاليات إلى الفعل فهي لغة اشتقاق ونحت دائمين، ولذلك فهي لا تتوقف عن النمو والتوسع تشهد بذلك عصور حضارتها الزاهرة يوم استوعبت ذلك المد الحضاري الهائل، وفضلاً عن خاصيتي النحت والاشتقاق فهناك الظاهرة الزئبقية للغة العربية التي تمنحها من القدرة الاستيعابية والمرونة المطلقة في التعبير ما يضعها على صعيد واحد من الكفاءة والحيوية مع مختلف اللغات الحية في العالم، تلك الظاهرة التي يعبر عنها بالمجاز الذي يجعل اللغة كائنا لانهاية لحركة تطوره واستيعابه وتمنع استقرار اللغة وجمودها، فالخاصية الزئبقية للغة تضاعف موجود هذه اللغة وبشكل لانهائي بما تمنح من فرص غير محدودة لقانون التكيف أن يتجاوز قانون

التخصيص[١٤] ... وتتوقف خاتمة القصيدة عند النثر الإلهي الذي كان وما يزال عنوان انتصار اللغة العربية وخلودها على مر الزمن،إذ المقصود هنا هو القران الكريم وان انتصار الرسول الكريم به يعني انتصار الأمة جميعها حيث تتوج السماء لغة العرب بتاج الأزل الأبدي حينما قدر لها أن تكون حاملة المعجزة المحفوظة بأمر الله إلى يوم الدين (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون الحجر الآية:٩) إن تشريف اللغة العربية لجمل أي وسور القران العظيم هو الذي حولها إلى معجزة، وإبداع درويش شعره فيها وقدرته على اللعب المحكم داخل حقولها الخصبة هو الذي جعلها معجزته الشخصية وعصا سحره وحدائق بابله هو ومسلته وهويته الأولى ومعدنه الصقيل.. وفي كل ذلك إشارات إلى مقدرته الفذة في إدراك ما في هذه اللغة من خصب وفاعلية حينما تتمكن من تحويل هواجسه ورؤاه إلى شعر ينهمر انهمار الربيع ليبدع لغة شعرية عارمة بالوهج و الألق ومفعمة بالحنين... ولابد من الإشارة هنا إلى إن فعل التسمية ومشتقاته كان حاضرا في شعر درويش بضراوة لأنه لون من ألوان الوثوق و الثبوتية التي يطمئن إليها الشاعر فهي الأعمدة التي تبني له عالما من الأمان والشعور بالانتماء[١٥].

وسوف تطرز بنت عراقية ثوبها

بأول زهرة لوز

وتكتب أول حرف من أسمك

على طرف السهم فوق اسمها..

فالتسمية تشخيص للمسمى وتأكيد للهوية وتمييز للذات واثبات لوجودها معا، وتكرار اسم من أو ما نحب محاولة لمواصلة الشعور بالمتعة به والتلذذ باستحضاره[١٦].

على هذه الأرض ما يستحق الحياة

١٤.

١٥.

١٦.

على هذه الأرض سيدة الأرض

أم البدايات، أم النهايات

كانت تسمى فلسطين،

صارت تسمى فلسطين

سيدتي.. أستحق لأنكِ سيدتي

استحق الحياة..

ويواصل الشعر عناقه للوطن، وتواصل التسمية حضورها في شعر درويش علامة على تأشير الهوية ويواصل الشعر- اللغة نهوضه علامة على الحب[١٧].

واقسم من رموش العين سوف أخيط منديلا

وانقش فوقه شعرا لعينيك

واسما حين اسقيه فؤاداً ذاب ترتيلا

يمدّ عرائش الأيك

سأكتب: جملة أغلى من الشهداء والمقل:

فلسطينية كانت ولم تزل

ويؤكد التسمية عنواناً للهوية وتحديدا لها:

فلسطينية الاسم

فلسطينية الأحلام والهم

فلسطينية المنديل والقدمين والجسم

فالتسمية كسر للعزلة ودخول في حياة الجماعة وكشف للطبيعة وأشيائها.

وباسمك صحت في الوديان

١٧.

خيول الروم اعرفها وان يتبدل الميدان

وتأتي أهمية التسمية في شعر درويش والشعر العربي الحديث من كون الاسم يحمل إشكاليته الاشارية والمعرفية والجمالية التي ترتبط بمضمون المسمى ويكشف حلها عما تفصح عنه جوانب هذا المضمون من دلالات ثاوية في متن النص ولذلك آمن العرب بأهمية إيحاءات التسمية على المسمى نفسه وعلى من حوله ولذلك أيضا كانت جمالية التسمية حقا من حقوق الوليد على والديه شرعا، وهذا الاهتمام دفع مباحث النقد الأدبي إلى دراسة التسمية أو العنونة دراسة خاصة ودعا إلى تحليلها من جانبين الأول بوصفها بنية مستقلة لها اشتغالها الدلالي الخاص و الثاني من خلال علاقتها بالمتن واشتباكاتها مع إشاراته ودلالاته...

إن الفعل المضارع (اسمي) يشتغل اشتغالا فنيا متشابكا داخل القصيدة لأنه لا يصدر إلا عن سلطة، فعل التسمية ينجز من خلال سلطة، والشاعر إذ يكرر إسناد فعل التسمية لنفسه فلأنه يمارس سلطته على الأخر إذ يفرض عليه اسمه من جهة ومن جهة أخرى فهو يمتلك سلطة اللغة التي يُسمّي بها ويختار من قاموسها الأسماء:[١٨]

أنا الأرض، والأرض أنتِ

أسمي التراب امتداداً لروحي

أسمي يديَّ رصيف جروحي

أسمي الحصى أجنحة

أسمي العصافير لوزاً وتين

أسمي ضلوعي شجر

انه يسمي نفسه الأرض ويسمي حبيبته كذلك في مشروع الحب الذي يسعى إلى التوحد والاندماج والإخصاب، فضلاً عن السعي نحو الثبوت في الأرض والتشبث

١٨.

بها باشتباك حميم، إن اسم التراب التقليدي ترابا لا يقنعه شعريا كما لا يقنعه اسم الضلوع ضلوعاً ولا اسم الحصى واليد والعصافير ولذلك يبتكر لها أسماء من جديد فيسمي التراب امتداد روحه واليد رصيفاً للجروح والحصى أجنحة ويسمي العصافير لوزاً و تيناً والضلوع شجرا مما يؤكد أمرين الأول زج الروح الشاعرة في أولية الخلق حيث لم يكن للأشياء أسماء بعد لإعادة تسميتها من خلال رؤيته الخاصة، من أعماق شجونه ومشاعره ولحظته التاريخية وثانيا هو يسميها من منظور خاص ذاتي يجمع بين الجمالي والوجود[١٩] وبين الشعري والوجودي معا.

واللغة عند درويش تعني بهجة الحياة والإحساس بمتعة الأشياء، أنها البوح، والبوح تعبير عن مكنون الوجود[٢٠]:

هذه لغتي قلائد من نجوم حول أعناق الأحبة

هاجروا

اخذوا المكان وهاجروا

اخذوا الزمان وهاجروا

اخذوا الكلام وهاجر القلب القتيلُ

وبمقدور هذه اللغة أن تكسر انغلاق الزمن وانكفاءه، بمقدورها أن تنعطف به نوعيا من السكونية والركود والسوداوية إلى الزمن الجميل الذي لا تصنعه إلا لغة مشرقة لا تنحاز إلى الحياة فقط بل تصنعها.

واللغة عند درويش هي دليل الحب الحقيقي وبرهانه والسلطة التي يمتلك بها اليقين: [٢١] هذا شعر إذا كنت حقا حبيبي

فألف نشيد أناشيد لي واحفر اسمي

على جذع رمانة في حدائق بابل

١٩.

٢٠.

٢١.

ولذلك فاللغة تزدهر وتعطي بازدهار الحضارة وحركة الحياة، تزدهر في الحراكات الاجتماعية الايجابية، وتذبل وتصاب بالشحوب في ظل الذبول والانتكاسات الحضارية وسلبية الحياة يقول درويش[٢٢]:

وشج سهم طائش وجه اليقين

تعبت من لغتي تقول ولا تقول

فالنص الأدبي ليس مجرد تجربة عاطفية تأخذ شكل القصيدة أو القصة أو الرواية بل هو جزء جدلي من النمو الاجتماعي و الحضاري للعصر الذي تولد فيه هذه التجربة معبرة عن مشاعر عصرها وأفكاره من خلال ديناميكية ذلك النمو الاجتماعي والحضاري القائم على الاعتراف بالنظرة التاريخية بوصفها نمط تفسير زماني تطوري أو توالدي على أنها الطريقة الأكثر ملاءمة لدراسة الإنسان والمجتمع فالأدب مثل الموسيقى فن زماني، أنه الزمن الإنساني الذي يخلقه وعينا من خلال الخبرة الفردية أو الاجتماعية أو الإنسانية في فهم الواقع وانعكاساته في الأدب[٢٣] لذلك فان درويش الفنان يربط اللغة التي هي وجود الشاعر بامتلاك التاريخ وبعث البؤر المتألقة فيه وليس الحاضر حسب[٢٤]:

وفي الصحراء قال الغيب لي: اكتب

فقلت على السراب كتابة أخرى

فقال...اكتب ليخضّر السراب

إن كلمة (اكتب) هنا تستحضر مفردة (اقرأ) التي حولت تاريخ الأمة من سكونية الصحراء وفراغها إلى كثافة الحضارة وحرارة الفعل، والكتابة على السراب كتابة أسطورية ليس لها أن تكون لأنها كتابة على الهواء، وتسطير في فضاء لا أصول له ولا ثبوت، لكنه الغيب يأمر بكتابة الفعل الحق، الكتابة التي تؤسس لمرحلة حضارية نوعية مرحلة تنهض فيها عوامل الخصب والتواصل والاستمرار من خلال

٢٢.

٢٣.

٢٤.

الفعل المضارع المتجدد (يخضر) الذي يوحي بكون يزخر بالحياة فالمفردة عند درويش ليست مجرد أصوات تلفظ ولا حروف تكتب بل هي أكوان مفعمة بالحيوية ولذلك يستنكر الشاعر غياب زخم مفردات الفعل والحياة:

اطلّ على المفردات التي

انقرضت في لسان العرب.....

فهو ليس انقراض اللغة العربية بل هو غياب الروح الجدلية التي كانت تحرك هذه اللغة، غياب الفكر المحرض الذي كان ينفخ الروح في اللغة، وهو ضعف الإرادة التي تشعل الروح دافعة إياها إلى صنع قرارها الإنساني وتعضيد قدرتها على المجابهة و التصدي..... وتكبر،تكبر اللغة في شعر درويش حتى تصير هي الوطن[٢٥] ....

وطني قصيدتي الجديدة كيف ادري أن

صدري ليس قبري، كيف ادري

أن أضلاعي سياج الأرض أو شجر الفضاء وقد تدلى...

إن الشعر والفنون الإبداعية هي وحدها القادرة على تخليص الإنسان من استلاب الواقع وقهر جموده. إن لفعل الكلمة أهمية في شعر درويش وفي ذكائه الشعري، فهو يدرك ما لهذه الكلمة المحرضة من دور في تحريك الإرادة الإنسانية نحو الفعل فكيف إذا كانت هذه الكلمة إلهيه سماوية[٢٦]:

لم نأت كي نأتي

رمانا البحر في قرطاج

أصدافا ونجمة

من يذكر الكلمات حين توهجت

وطنا

٢٥.

٢٦.

لمن لا باب له

من يذكر البدو القدامى

حينما استولوا

على الدنيا بكلمة

وهذه الكلمة هي مفتاح المعرفة وجوهر العلم وسر الإسرار (اقرأ...) حيث يتم بالقراءة الكشف عن رمز الزمن وأسفار الحضارة وسبر دواخل الإنسان والقصيدة – اللغة هي ثروة الشاعر وتراث الشهداء رفاقه لذلك فهم في وصاياهم لايوزعون على ورثتهم غير الأغنيات[٢٧]:

كتب الوصية

عشرون أغنية لعينيها وللرمل البقية

وتظل اللغة في صحبة الوطن يسير معها في رحلتها، و في توهجها وسكونها[٢٨]:

كلامك كان أغنية

وكنت أحاول الإنشاد

ولكن الشقاء أحاط بالشفة الربيعية

كلامك كالسنونو طار من بيتي

فهاجر باب منزلنا، وعتبتنا الخريفية.

واللغة نشيد المقاومة، والنشيد إرادة الثوار، والنشيد هدف انتصارهم ورمز لكل ما هو جليل في تاريخهم[٢٩]:

فيا وطن الأنبياء.....تكامل

ويا وطن الزارعين....تكامل

٢٧.

٢٨.

٢٩.

ويا وطن الشهداء... تكامل

فكل شعاب الجبال امتداد لهذا النشيد

وكل الأناشيد فيك امتداد لزيتونة زملتني

إن النشيد والأناشيد هنا رمز لمجمل الحراكات الايجابية الكثيفة التي تصدر عن فعل الثورة وتضحيات الثوار بدمهم، الأناشيد ليست أمنيات لغوية فحسب بل هي البؤر التاريخية المضيئة التي يسلمها جيل لجيل، وزيتونة زملتني هنا رمز للثورة- للأرض التي تشد سواعد المقاتلين من اجلها لكن هذا الرمز يستمد قوته وحيويته من نشيد تاريخي كبير هو ارتباطه برمز السيدة خديجة الكبرى التي كانت أول مؤازر حميم للنبوة ولثورة الإسلام الكبرى وظلت أروع نشيد عبر الأجيال لامرأة مثلت جلال المبادئ ورصانة الفعل وصدق الحب والوفاء، ولذلك يواصل درويش قائلا:

ومالت خديجة نحو الندى فاحترقت

خديجة. لا تغلقي الباب

إن الشعوب ستدخل هذا الكتاب

وتأفل شمس أريحا بدون طقوس....

نعم.... لقد دخلت الشعوب من ذلك الباب المقدس وامتد النشيد متواصلا، إن استدعاء درويش للمفردات والتراكيب يخضع بدوره لسياقات الخيال وتركيبات الذاكرة أكثر من خضوعه لعلاقات الكلمات في معاجم اللغة، والملاحظ إن الشاعر لم يتخل عن أي منجز شعري. جمالي حققه في السابق، فهو لم يتخل عن الغناء البسيط وان ازداد كثافة، ولم يتخل عن البنية الدرامية وان ازداد الفضاء تشابكا وتعقيدا بين مفرداته وإيقاعاته وتراكيبه[٣٠].

إن تجربة الحداثة لدى محمود درويش ترتكز على اللغة التي تطورت علاقته بها عبر المراحل التي مر بها شعره، إن درويش الفنان يترجم التجربة الفلسطينية

٣٠.

عن الحرب والدمار بمصطلحات كونية، انه يربط التاريخ بالفن لان انفتاح أفق تاريخي في العمل الفني هو كما يوضح الفيلسوف الايطالي جياتي فايتمو انعقاد لحقيقة وموضعة لها في العمل، فليس من حقيقة خارج التاريخ، وهكذا تصير اللغة حاضنة التاريخ ومستودع الفن ومقر وجوده، شعر درويش يعيد بعث اللغة، ينفخ فيها الحياة عبر إعادة إسباغ المعنى على الكلمات وتحميلها بمعان عديدة واللغة مثل فلسطين توحد ما لا يتحد[٣١].

لقد تأكد في النقد عموما إن النقلات النوعية في الشعر تحدث من خلال اللغة فاللغة هي عذاب الشاعر من اجل التجاوز لأنه بها متماهية مع وجدانه يدير حواراته مع الإنسان والطبيعة والأشياء، مع الزمان والمكان مع الأشواق والمواجد والمكابدات، كلما تمكن منها اكتشف إنها تختزن التاريخ والوقائع في مفرداتها وتشكلاتها معا، والشاعر المقتدر هو الذي يلعب باللغة لعبته الماهرة، والتجربة الفنية الناضجة هي التي تقف وراء هذه اللعبة تحركها سعة الأفق وعمق الرؤيا الفنية التي لا تبصر الأشياء حسب بل وتبصر ما وراءها كذلك، إن استسلام الشاعر لمنهات الأحداث وتفاصيلها يسلم اللعبة للمباشرة والغنائية المفردة، لكن الدخول إلى باطن الحدث والى أعماقه السرية هو الذي يرقى بلغة الشعر نحو التركيب الدرامي الذي يغني الفن وينبض بالحركية والتنوع والتداخل في صميم النص الشعري. إن الحداثة عند درويش ليست وعيا نظريا كما هي عند ادونيس ويوسف الخال وإنما هي مختبر شعري وخلق للغة الشعرية التي تعانق اللحظة التاريخية التي تعيد ترتيب أوليات الذات والواقع على نحو جديد تمليه الحاجات اللحظوية الراهنة وتفصح عن اشتباك الذات في علاقاتها الكونية، والحداثة عنده هي مشروع للتقدم من العبودية إلى الحرية، من مقاومة السلطة الظاهرة إلى مقاومة السلطة الخفية المغروسة في ثنايا الوعي وهي سلطة النصوص التي يحتمي بها الشاعر التقليدي ويحجب التجربة عنه من خلالها، والتجربة الكتابة/ اللغة هي الوسيلة الوحيدة لقراءة الذات قراءة فاعلة تهدف إلى إعادة بناء الذات في زمن يشتد فيه حضور الأشياء وموت الإنسان[٣٢] إن أهل علم الإنسان وعلم النفس

٣١.

٣٢.

وعلم الاجتماع والأدباء الكبار يدركون ما للغة الأم من أهمية في عملية تشكيل الإنسان والهوية معا، فاللغة جوهر عام لا يتسنى له الوجود إلا في حيز خاص، وجود اللغة لا يكون تاما إلا في لسان واحد.بمعنى إن الإنسان لا يجيد الإجادة الكاملة إلا في لسان واحد فليس للقلب الواحد إلا لسان واحد هو اللغة الأم[٣٣] ولذلك فان كل أدب إنما يكون بلسان، أي باللغة وقد تقمصتها الذات المبدعة فانتقلت بذلك من كونها نظاما للعلامات والرموز والقواعد والمصطلحات لتكون الهيكل الاجتماعي وقد حقق ذاته فكرا ومشاعر وخاصية وجودية، ولا أدب إلا و هو يحمل كامل خصائص اللسان الذي يرد فيه أي الأمة أو الشعب الذي ينطق بهذا اللسان وهو بهذه الخصائص يكتسب بعده الإنساني ويطل من خلال هذه الخصائص على الأمم والشعوب الأخرى ليكشف لها عن وجود هذا اللسان[٣٤] وهكذا تحمل الآداب الحية ضمير أمتها إلى العالم بعد أن كانت عامل توحيد داخل حياة الأمم فلقد كانت اللغة العربية الراقية ليست عامل توحيد للأمة حسب بل وعنوان حضارة كذلك وذروة إبداع جمالي سواء عبر إعجاز النص القرآني العظيم أو في جلال الشعر العربي والنثر الفني عبر العصور.

٣٣.

٣٤.

الهوامش:

١- موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، د. عبد المنعم الحفني، ٣٧٩، مطبعة أطلس، ط ٤، القاهرة ١٩٩٤.

٢- في فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، ٧٥ -٧٦، دار النهار للنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨

٣- سيكولوجيا لغة الاطفال، صباح حنا هرمز، ٣٨، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد، ١٩٨٩.

٤- قانون سلامة اللغة العربية وفاعلية التطبيق، مالك المطلبي، ٦٠،ضمن كتاب نحو لغة عربية سليمة، منشورات وزارة الثقافة ة الفنون، بغداد، ١٩٧٨.

٥- الأدب والهوية القومية، محمد مبارك، ٣٥٥،ضمن كتاب الشعر العربي الان، إعداد علي الطائي، مهرجان المربد الحادي عشر، دار الشؤون والثقافة العامة، بغداد، ,١٩٩٦

٦- السيرة في إطار الشعر، خليل الشيخ، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد السادس عشر، ١٩٨٧/٢.

٧- ديوان محمود درويش، المجلد الثاني،٦٣٧، دار الحرية، ط ٢، بغداد، ٢٠٠٠.

٨- ديوان أبي نواس، شرح وضبط وتقديم علي فاعور، ٥٧٣، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨٧.

٩- في فلسفة اللغة، ,١٨

١٠- الصورة الشعرية والتشكيل الجمالي عند محمود درويش، د. محمد فكري الجزار، ضمن كتاب محمود درويش المختلف الحقيقي، ١٨٥ -١٨٦، دار الشروق، ط ١، عمان، ١٩٩٩.

١١- مجنون التراب، شاكر النابلسي، ٥٠٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٨٧.

١٢- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، ٨٣/٤-٨٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠

١٣- الشعرية العربية في دروب التيه، محمد لطفي اليوسفي، مجلة الحياة الثقافية التونسية، ١٩٩٢/٦٣.

١٤- الحفاظ على سلامة اللغة العربية، محمد البراك، ٧٠-٧١، ضمن كتاب نحو لغة عربية سليمة.

١٥- الديوان، ٥٨٦/٢، الحرية.

١٦- المصدر نفسه، ٤٨٨/٢.

١٧- ديوان محمود درويش، ٨٢، دار العودة، ط ٨، بيروت،١٩٨١.

١٨- المصدر نفسه، ٦١٩.

١٩- الحداثة في شعر محمود درويش، رمضان بسطاويس، مجلة القاهرة، ١٩٩٥/١٥١، ٤١

٢٠- الديوان، ٦٨٧/٢، الحرية.

٢١- المصدر نفسه، ٦٤٣/٢.

٢٢- المصدر نفسه، ٧٣٣,/٢

٢٣- التحليل النقدي والجمالي للأدب، د. عناد غزوان، ٤٩، دار أفاق عربية، بغداد، ,١٩٨٥

٢٤- الديوان، ٦٣٥/٢-٦٣٦، الحرية.

٢٥- المصدر نفسه، ٣٩٤,/٢

٢٦-المصدر نفسه، ٤٥٠,/٢

٢٧- المصدر نفسه، ٢/,٤٦٦
٢٨-الديوان العودة ,٧٩
٢٩- المصدر نفسه، ,٦٢٧
٣٠- عصفور الجنة ام طائر النار، غالي شكري، مجلة القاهرة،١٥١ /,١٩٩٥
٣١- اللغة مثل فلسطين توحد مالا يتحد، إبراهيم مهوي، مجلة القاهرة، ١٥١ /١٩٩٥، ,١٢٤
٣٢- الحداثة في شعر محمود درويش، رمضان بسطاويس،مجلة القاهرة، ١٥١ /١٩٩٥،,٤١
٣٣- في فلسفة اللغة، ,١١
٣٤- الأدب والهوية القومية، محمد مبارك،٣٥٦.